

# "الموشح العروس" موجود

أ. سليم ريدان

كلية الآداب - منوبة - تونس

من الموشحات التي كان لها صدًى في تاريخ هذا الفن موشح لابن غرّلة وسم " بالعروس ". وهي تسمية تدلّ على الإعجاب. لكن شيوخ الأدب القدامى كابن سناء الملك والصفدي وابن الخطيب والحليّ، أهملوا روايته وسلم الباحثون المحدثون بضياعه. وتعلّق به وبصاحبه خير تردّد الباحثون بين التسليم بصحته والشك فيه <sup>(1)</sup> ووصفه ابن سناء الملك فقال : " المركب قفله من سبعة أجزاء " <sup>(2)</sup> وهو "الموشح المعروف بالعروس، وهو موشح ملحون. واللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصّة، فلهذا لم نورد مثاله " <sup>(3)</sup>.  
واستفدنا من الخبر المتعلّق به وبصاحبه أنّه موشح تام استهل بمطلع. وأثناء اطلّاعنا على "عدة الجليس"، استوقفنا موشح توفّرت فيه كل هذه الصفات إلا صفة التمام. فهو أقرع بدأ بدور.

والملاحظ أن المستشرق غرسية غومس قد وقف عليه في "عدة الجليس"، وحقّقه ونشره ضمن بحثه في الخرجات الرومية ولم يلفت الانتباه إليه. ونقله عنه سيد غازي في "ديوان الموشحات" <sup>(4)</sup> وحشره ضمن الموشحات المجهولة النسبة وحلّله عروضيا ورسم وزنه على النحو التالي :

الدّور : (فعولن مفاعيلن) 4 x

القفل : (فعولن \* مفاعيلن) 3 x

فعولن مفاعيلن

وحسب هذا الرّسم فالقفل يتألّف فعلا من سبعة أجزاء. لكنّ اهتمام غازي بالوزن شغله فيما يبدو عن الانتباه إلى ملامح "العروس". وبدا لنا أنّه هو، وإن كان غياب المطلع ربّما أغرى

---

(1) انظر مصطفى عوض الكريم، فنّ التوشيح. بيروت 1974. ص 136-137، محمد مصطفى عناني، الموشحات الأندلسية. الكويت 1980 ص 125.

(2) ابن سناء الملك دار الطراز في عمل الموشحات. تحقيق جودة الركابي. دمشق 1949 ص 51.

(3) دار الطراز ص 27.

(4) سيد غازي . ديوان الموشحات. الإسكندرية 1979. II رقم 41 ص 657.

بالشك فيه. إلا أن الخبر المتعلق بابن غرلة وبمضمون المطلع " وما يليه " <sup>(5)</sup> ربما برر سقوط المطلع، وإن شك الباحثون في صحة <sup>(6)</sup> الخبر. وهذا ما يدعو إلى النظر من ناحية في مدى صحة الخبر وأهميته بالنسبة إلى موضوعنا. ومن ناحية أخرى في مضمون « ما يلي » المطلع وهو الدور الأول من البيت الأول. وقد وصلنا.

وقد لاحظنا اختلافا في تحقيق الموشح عن مخطوط " عدة الجليس " بين أ. جونز و غرسية غومس. وهو ما دعانا إلى إعادة النظر في تحقيق نص الموشح على ضوء قراءتي المستشرقين وخاصة بالاعتماد على هوامش جونز.

#### أ - نص الموشح <sup>(7)</sup>

##### (1)

أَبَاحَ حِمَى الصَّبِّ  
ذُو <sup>(8)</sup> أَلْتَمَّ فِي الحَبِّ  
فَظَلَّ مِنَ الكَرْبِ  
يَهِيْمُ بِلَا لُوبِ  
مُوحَّشٌ بِهِ أَرَشُ  
مُنْحَشٌ يَشِيْمُ <sup>(9)</sup> الغَشِ  
فَأَجْهَشُ بَكَأ <sup>(10)</sup> يَنْبَشُ  
عَلَى السَّرِّ مُسْتَفْتَشٍ <sup>(11)</sup>

(5) انظر الخبر فيما يلي.

(6) عناني. الموشحات ص 125.

(7) انظر ابن بشرى الغرناطي. عدة الجليس. تحقيق أ. جونز ( A. Jones ) أوكسفورد 1992. رقم 349. ( وقد أمدنا الأستاذ جمعة شيخة بنسخة منه مشكورا ) - سيد غازي. ديوان الموشحات II ص 657.

(8) أبدل جونز "ذو" بـ "بدر" ولم يذكر السبب رغم أنها واضحة في المخطوط حسب تعليقه. والملاحظ أن الوزن لا يستقيم بهذا الإبدال بأي وجه من الوجوه. ولا يستقيم أيضا بقراءة فصيحة للعبارة "ذو التّم" أي بإدغام الذال في التاء. لكن الموشح مزّم ويمكن التصرف في أدائها. وذلك بتقصير حركة الذال وقطع همزة الوصل.

(9) أخذنا بقراءة غومس لوضوح معناها. وهي حسب جونز "يشير الغش" ولا معنى لها.

(10) أخذنا بقراءة جونز على أن الكلمة مفعول "أَجْهَشُ" من قولهم "أجهش بكاءً".

(11) أثبت غومس "سزمسفتش". وأخذنا بقراءة جونز لأنه عودنا بملاحظة أي غموض في الخط أو أي تردّد في قراءة المخطوط. ولم يفعل ذلك بالنسبة إلى هذه العبارة.

(2)

أَنَا فِي الْهَوَى عَانٍ  
لِأَحْوَرَ قَتَّانٍ  
رَمَانِي فَأَصْمَانِي  
بِأَسْهُمِ أَجْفَانٍ  
تَرِيَّشُ      يَغْنُجُ حَبْشُ (12)  
وَأَفْحَشُ      حَشًا يَنْتَشُ (13)  
تَعْطَشُ      بِدَمْعِ رَشُ  
عَلَى الْحَدِّ مُسْتَعْرِشُ

(3)

رَشًا سَامَنِي بِالصَّدِّ  
أَسَى قُوَّتِي قَدْ هَدِّ  
وَيَنْضِي لِثَارٍ (14) خَدِّ  
لَهُ نَاعِمًا أُمْلَدُ  
يُحْمَشُ      إِذَا جُمَشُ (15)  
وَيَخْدَشُ      إِذَا أَدَهَشُ

12) أثبت غومس "غاش" وهذا يغير القافية تماماً. أما جونز فقد علق عليها بأن الكلمة كما تبدو في المخطوط "حبش" فهي إذن تتركب من ثلاثة أحرف لا من حرفين كما أثبت جونز "حش". والسياق الدلالي يناسب ما ارتأيناه.

13) أخذنا بقراءة جونز لأنه نبهنا إلى الكلمة كما تبدو في المخطوط، وهذا لا يلغي إمكانية قراءة غومس "يغيش". وكل الغصن يبدو المعنى فيه غامضاً.

14) أثبت جونز "يعطي لثاري". وأثبت غومس "ويعطيني لثم". وعلق جونز أنها كذا في المخطوط وأشار محققاً "ولعل الصواب هو مثل ينضي". ولا وجه لأي إمكانية التباس بين الثار واللثم في الكتابة. ولا يستقيم الوزن إذا سلمنا به وأثبتناه مع فعل "يعطي" بدون ضمير المتكلم كما يشير إلى ذلك تعليق جونز. أما الالتباس بين "يعطي" و"ينضي" فليس مستبعداً. لذلك أثبتنا "ينضي" لأنه استعارة تتلاءم مع معنى الثار.

15) أثبت كل من جونز وغومس "حمش" بالحاء. ولا نرى وجهاً لمعناها. وما أثبتناه يتلاءم والمعنى الوارد في الحرجة. انظر الهامش رقم 21 ص 5.

وينقش كما رَقَشُ (16)  
طِرَازَ رِيَاضِ الطُّشِ

#### (4)

بِوَجْهِكَ أَسْتَشْفِ  
مِنَ السُّقْمِ وَاللَّهْفِ  
فَلِمَ صُغْتَ (17) لِي حَتْفِي  
بِصُدْغَيْكَ لِلْعَطْفِ  
كَأَرْقَشِ عَدَا يَنْهَشِ  
وَيَبْطُشِ وَقَدْ حَرَّشِ  
وَيَدْهَشِ لِمَنْ يُوحِشِ (18)  
مَشُوقًا بِهِ عَيْشِ (19)

#### (6)

وَوُخُودٍ يَنْهَدِ غَضُ  
كَرْمَحٍ إِذَا اسْتَعْرَضِ  
بِهِ أَثَرُ لِلْعَاضِ  
فِيهِ قُلْتُ أَعَرَضِ (20)؛  
من حمش كُنَ التانش  
مرسيدش كُنَ اللزمش

16 لا وجه لاستعمال صيغة المبني للمجهول "رَقَش" كما شكل جونز. بيد أن فاعله هو "الطش" (= المطر) ومفعوله "طراز رياض". أما تعريف "الرياض" عند غومس فيبدو من اجتهاده لاجتناب التنوين في حالة التنكير حتى يستقيم الوزن، لكن إلغاء التنوين من جوازات الشعر فضلا عن كون الموشع مرثما أما من حيث المعنى فالتعريف لا يضيف شيئا ذا بال.

17 أثبت غومس "جَبْتُ". بيد أن جونز نبه إلى أن ما يبدو في المخطوط هو "صنت" مما يرجح قراءة جونز فضلا عما بين فعل "صُغْتَ" و "صدغيك" من تناغم.

18 أخذنا بقراءة جونز لأنه لم يشر إلى أي لبس في المخطوط.

19 أخذنا بقراءة جونز لنفس السبب السابق. لكن نصب "مشوق" على المفعولية لفعل "يوحش" يبدو متأكدا. وهو ما يرجح هذا الفعل على "يرعش" الذي أثبتته غومس.

20 أثبت جونز "إذ عرض". وذكر في الهامش أنها في المخطوط "أعرض" وهي واضحة. ولا حاجة لإضافة "إذ".

أقوْطشُ      كُم اللنيش  
كما ننشُ      دا فلامش<sup>(21)</sup>

## ب- أخبار حول الموشح وصاحبه

ليس لنا من أخبار حول ابن غرلة سوى ما تعلق باتجاهه في فن التوشيح، وبهذا الموشح ، وأهم ما ورد في هذا المجال نص لصفى الدين الحلبي نوره رغم طوله لأهميته من عدة جوانب " كان ابن غرلة الشاعر المغربي - وهو من أكابر أشياخهم - ينظم الموشح والزجل والمزتم : فيلحن في الموشح ويُعرب في الزجل تقصّداً منه واستهتاراً. ويقول : إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك. وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك. ولهذا لم يشبت شيئاً من موشحاته في "دار الطراز".

فمن موشحاته المزمّنة الموشحة الطنانة المشتهرة الموسومة "بالعروس" التي نظمها عند عشقه رميلة. أخت عبد المؤمن الكومي<sup>(22)</sup> ملك الأندلس. وقتله الملك بسببها لتوهمه من مطلعها وما يليه، اجتماعه بها، والواقعة مشهورة. وكان حسن الصورة جميل القدر ذا عشيرة. وكانت هي أيضاً جميلة الخلُق فصيحة اللسان تنظم فيه الأزجال الرائقة الفائقة...<sup>(23)</sup> ثم يورد الحلبي قسماً من موشح آخر لابن غرلة مطلعُه :

من يَصِيدُ صَيْداً      فَلْيَكُنْ كَمَا صَيْدِي  
صَيْدِي الْغَزَالَةَ      مِنْ مَرَاتِعِ الْأَسَدِ

ثم يقول : " إنّه لما أخرجه الملك ليقتله نظر إلى الناس وارتجل بيتاً في الوزن يستنجد به عشيرته لأخذ ثأره :

حَذُّهَا الْأَسِيلُ      بَدَتْ مِنْهُ أَنْوَارُ  
طَرَفُهَا الْكَحِيلُ      سُلُّ مِنْهُ بَتَّارُ  
هَآ أَنَا الْقَتِيلُ      قَهْلٌ يُؤْخَذُ الثَّارُ  
قَدْ أُسْرْتُ عَبْدًا      وَلَمْ أَكُ بِالْعَبْدِ  
مَتًّا لَا مَحَالَةَ      فَاطْلُبُوا دَمِي بَعْدِي<sup>(24)</sup>

(21) أثبتنا هذه الخرجة عن غومس لدرايته بلغة الخرجات الرومية. ومعناها : "تجشم نهدي وتحجره وتلهيه بمص يلدعني فيبدو كسنان رمح ملتهب " غازي. ديوان الموشحات II ص 659.

(22) حرفت الرواية المشرقية هذه النسبة إلى " الأموي".

(23) عن م.م. عناني. الموشحات الأندلسية ص 123 - 124 .

(24) المصدر السابق ص 124.

هذه مجموعة أخبار جمعت بينها رواية الحلبي. وبعضها مشرقى الأصل وهو موقف ابن سناء الملك من موشحات ابن غرلة. وبعضها أندلسي الأصل وهو :

1- مذهب ابن غرلة في فن التوشيح وقولته.

2- حبه لرميلة ومقتله.

والرواية المشرقية قد تركت آثارها في هذين الخبرين. من ذلك نعت ابن غرلة "بالشاعر المغربي" <sup>(25)</sup>. وتحريف لقب عبد المؤمن (الأموي عوض الكومي). لكن الخبرين من أصل أندلسي. فالأول لأنه ينقل إلينا قول ابن غرلة. أما الثاني فأندلسيته كامنة فيه خفية تحتاج إلى التحليل :

تستوقفنا في هذا الخبر المعلومة المتعلقة بمقتله. فالبيت الذي قيل لنا إن ابن غرلة ارتجله قبل موته هو من الموشح الذي ذكر الحلبي بعض أبياته. لذلك لاحظ الراوي أن هذا البيت في "الوزن" نفسه، وهو ما يدل على أن هذا البيت سابق للخبر المتعلق به. وأن هذا الخبر قد استمد من الموشح. وهذا "ما يغري بالشك في صحة ما جاء في كتاب "العاطل الحالي" <sup>(26)</sup> على حدّ عبارة عناني. لكن مصطفى عوض الكريم يستنتج مما جاء في هذا الكتاب أن الحلبي "يتحدث عن شيء يعرفه حق المعرفة" <sup>(27)</sup>. فلا بد إذن من تجاوز هذا التناقض بين الباحثين. وذلك بالنظر في هذا الخبر للتثبت من مدى صحته.

قلنا إن الخبر أندلسي لأسباب ثلاثة :

الأول هو أن شخصياته أندلسية.

الثاني هو أن الأفعال فيه ذات بعد سياسي في علاقة وثيقة بالمحيط الذي نشأ فيه الشاعر. فهو يحمل في ثناياه ملامح تجربة حضارية سياسية عرفت في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. فنواة الخبر وهو مقتل ابن غرلة على يد الموحدين ربما كانت صحيحة.

السبب الثالث هو أن هذا الخبر ليس وحيداً من نوعه في تاريخ الأدب الأندلسي، ولنا منه نظيران على الأقل ذكرهما ابن حزم في طوق الحمامة. أحدهما تعلق بأسرة بني أمية. فقد "قتل أحمد بن مغيث" و "استوصل آل مغيث بسبب تغزله بإحدى بنات الخلفاء. ومثل هذا كثير" <sup>(28)</sup>. والنظير الثاني تعلق بشعر قيل في التغزل بصبيح زوجة الحكم الثاني و "غنت به جارية" <sup>(29)</sup> في حضرة المنصور بن أبي عامر تعريضا به.

والملاحظ أن هذين الخبرين والخبر المتعلق بابن غرلة تشترك كلها في كونها ظهرت في ظروف كانت فيها السلطة السياسية حازمة صارمة تركز إلى السيف في تعاملها مع الخارجين

(25) هذه النسبة يطلقها المشاركة كثيراً على الأندلسيين وسواهم دون تمييز بين الأقطار المغربية.

(26) عناني - الموشحات ص 125.

(27) فن التوشيح ص 136 - 137.

(28) طوق الحمامة. ط. القاسمي تونس 1980 ص 76.

(29) المصدر السابق ص 76.

عليها. ممّا يدعو إلى توخّي التقية في الصراع واعتماد الإيحاء والتلميح دون التصريح، وهو ما يضمنه فنّ القص أو الشعر.

فهذا الخبر في مجمله يبدو من نسيج الخيال القصصي لكنّه في صلة متينة من ناحية بموشحات ابن غرلة وعلاقة الأندلسيين بالسلطة الموحدية. فهذه الموشحات قد أمدت القصص بعناصر كوّن منها قصّة من نوع قصص العشاق في "أغاني الأصفهاني" ولكنّ هذه العناصر قد استقطبتها علاقة الأندلسيين بالسلطة الموحدية. ففضية ابن غرلة ليست مع عشيقته وإنما صارت مع عبد المومن. فالنسيج القصصي قد رسم علاقة بينهما تتجاوز الفرد إلى الجماعة. فعبد المومن بربري كومي، بيده السلطة التي لا تكون إلا في "عصبية" حسب نظرية ابن خلدون، فهو غالب سياسيا وتجسّم ذلك في القتل. أمّا ابن غرلة فأندلسي "له عشيرة" من بني جنسه. واسمه ضارب في الأعجميّة.<sup>(30)</sup> وقد سلب لب أخت السلطان - حسب الخيال القصصي - وأغراها منه جماله وقتّه حتى صارت تقول فيه الأرجال. فابن غرلة إذن غالب حضارياً.

فهذا الخبر داخل نسيجه رؤية أندلسية ترسم العلاقة بين الأندلس برقة حضارتها والسلطة الموحدية الدخيلة عليها. وهو ما حملنا على اعتبار الخبر أندلسيا انطلق خيال صاحبه من عناصر تاريخية ثابتة هي مقتل ابن غرلة وموشحاته. ولكنّه وظفها لمآرب في النفس. واقتضى توظيفها إضافة عناصر هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع من نوع ما أضفاه على العشيقين من صفات.

لذلك يبقى هذا الخبر في نظرنا وثيقة ذات قيمة تاريخية من وجهة حضارية لا من ناحية واقعية أحداثه. وقيمته الأدبية تبقى ثابتة في شتى الحالات. وتكمن من ناحية في دلالته على خروج الموشح من حلقات الغناء ومجالس الأُنس الضيقة إلى مجالات أرحب هي مجالات فنّ القصّ تستخرج منه أخباراً وتوظف عناصره سرداً ووصفاً وحواراً على نحو ما وقع بالمشرق في الشعر والشعراء. وتكمن من ناحية أخرى فيما أمدنا به من معلومات دقيقة حول الموشح العروس خاصة. وهو ما دعانا إلى الوقوف عنده طويلاً.

وقد أفادنا هذا الخبر بأنّ هذا الموشح يبدأ بمطلع، وهو أمر لا شك فيه لأنّ الحليّ يعرفه، وقد اشتهر أمره بالمشرق. فلو كان خالياً من المطلع لما سكت الحليّ عما ورد في الخبر من كون الموشح يبدأ بمطلع. وأفادنا أيضاً بمضمون المطلع وما يليه. فقد كان مرجع صاحب الخبر فيما نسجه خياله من علاقة بين ابن غرلة ورميلة أخت عبد المومن. ولعل سقوطه في رواية ابن بشري كان بسبب هذا المضمون.

ولا نستبعد أن يكون ابن سناء الملك قد أهمل هذا الموشح جملة وسواه من موشحات ابن غرلة لسبب سياسي لا لكونها مزمنة فحسب. فهذه الموشحات قد نسجت حولها أخبار تمس بالأسرة الموحدية الحاكمة وقد كانت في أوج نفوذها وتربطها علاقات بالدولة الأيوبية في مصر

(30) يتردّد هذا الاسم بين اليهودية والمسيحية من حيث اشتراكه في المادة مع اسم الوزير اليهودي المشهور بغرناطة، ابن نفريّة. ومن حيث إمكانية علاقته بمادة "غرل" في العربية.

(31) والتي كان ابن سناء الملك في خدمتها.

سقط المطلع لكن " ما يليه " بقي ، وهو ما يمكن أن يساعدنا على مزيد التثبيت من أن هذا الموشح الذي وصلنا هو " الموشح العروس " فعلا.

يحتوي الدور الأول من هذا الموشح في جزأيه الأول والثاني معنى الاكتمال في الحب بصفة مطلقة منسوبا إلى الحبيبة في قوله "ذوالم في الحب". ومعنى اكتمال الحب هو تبادل المحبة والوصل وقد أشار الخبّر إلى عنصر تبادل المحبة في وصفه رميلة عشيقة الشاعر. وصفة التمام مصطلح دقيق الدلالة عند من نظر للحب. فابن داود الإصفهاني يقابل في كتاب " الزهرة ". بين المحبة " ما دامت لهواً ونظراً " والمحبة " إذا وقعت على التمام في المصافاة " (32). ويصف ابن حزم الوصل بكونه " كمال الأمانى ومنتهى الأراجي " (33). فإذا احتوى المطلع ما يشير إلى انتماء المحبوبة إلى بيت ملك، كان ذلك باعثاً على ما "توهمه" الملك الموحدى بنفسه أو منقّذاً يساعد على الكيد لابن غرلة لدى هذا الملك أو مجالا خصبا لخيال القصاص يلحم به سدى قصته الغرامية فيعقد بينها وبين مقاصد سياسية.

والهم أن الدور الأول من هذا الموشح الذي وصلنا فيه عنصر دلالي يطابق ما ورد في نص الحلّي عن " الموشح العروس " وينضاف إلى القرائن المتعلقة بالشكل، دليلا على أن ما أورده ابن بشري في آخر مجموعته إنما هو " الموشح العروس " وصلنا أقرع وكان تاماً وهو ما قد يبرّر غفلة كبار الباحثين أو تغافل بعضهم عنه في العصر الحديث. لكنه حافظ على ما ينهض بتفرد هذا الاسم وشهرته. وذلك من عدة جوانب أهمّها التركيب والوزن واللغة. وهو ما نروم البحث فيه مستقبلا.

لكننا نحتاج في هذا المجال لإبداء بعض الملاحظات تتعلق باللغة في هذا الموشح. ونمّا يدعوننا إلى ذلك أن اللغة هي سبب إغراض شيوخ الأدب عنه، هذا الاعراض فلعلّها من أسباب شهرته هذه الشهرة.

فابن سناء الملك قد أسقطه رغم أنّه كان مثاله الوحيد في الموشح المركب من سبعة أجزاء. والحلّي ذكر بموقف ابن سناء الملك منه وأكد شهرته تأكيداً يلفت الانتباه (34). لكنّه لم يروه، والسبب في ذلك أنّه ملحون مزّم.

على أنّ عديد الموشحات لم تخل من اللحن وقد وردت في عديد المصادر (35). إلّا

(31) من ذلك أنّ صلاح الدين الأيوبي استنجد بالمنصور الموحدى في حروبه ضد الصليبيين وراسله في الموضوع.

واتصل به عن طريق مبعوث خاص هو شمس الدّين بن منقذ. انظر نفع الطيّب 1 ص 444 - 445.

(32) ابن داود الإصفهاني - كتاب الزهرة - 1 ص 22.

(33) ابن حزم - طرق الحماة - ص 109.

(34) انظر ما سبق ص5.

(35) انظر على سبيل المثال : سيد غازي، ديوان الموشحات 1 ص 14 - قفل 1 و ص 31. 2 - ص 43

ق 2 - ص 418 ب 3 - ص 472 ق 1 - عدة المجلس رقم 293 ب 2 - رقم 172 ب 3 - رقم 347.



أنّ التزنيـم في هذه الموشحات عرضي يتسرّب اللفظ العامي تارة في الدور وتارة في القفل وأخرى في المقطع أو حشو البيت، أمّا في الموشح العروس فالتزنيـم حاضر في كلّ الأقفال. ولعلّ المطلع كان مزناً أيضاً. وبصفة خاصّة فقد استأثرت العامية بالمقطع من كل الأقفال وتجاوزت الحيز الذي حدده لها المنظرون وهو الخرجة، وكانت هذه بالأعجمية.

فهذا الموشح قد تنازعتـه ثلاث لغات لتتوزّع على أجزائه حسب رؤية تفاضل بينها : الفصحى مجالها الأدوار وقد تمازج العامية في الأقفال. والعامية مجالها الأقفال والمقاطع منها خاصّة. والأعجمية في الخرجة.

فتوزع اللغات في هذا الموشح قد خرج عما سنّه المنظرون وهو أن تكون العامية والأعجمية في الخرجة لا غير، والفصحى في سائر الموشح. ولا شكّ أنّ بعضهم قد رأى فيه تجنّباً على الفصحى بامتزاج العامية بها في كل أقفال الموشح وحلولها في المواطن القارة منه، فضلاً عن حضور الأعجمية وإن كان ذلك في الخرجة. ولم يبق للفصحى إلا الأدوار. و أمّا المطلع فلربّما داخله التزنيـم أيضاً فكان من أسباب سقوطه.

فتوزع اللغات في هذا الموشح يبدو مقصوداً يخضع لنظام واختيار. والتزنيـم فيه ليس عرضياً. ممّا يدلّ على أنّ هذا الموشح يمثل اتجاهاً في فن التوشيح يتميـز بتعدّد اللغات وتوزيعها فيه توزيعاً مخصوصاً. وتخضع الرؤية الفنية فيه لقيم الإبداع لا لقيم النقد.

فهذا التوزيع ليس اعتباطياً ولا يكفي تبريره بما ورد في جواب ابن غرلة عندما سئل في الموضوع فقال : " إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وليس هو "استهتاراً" (36) . في معنى الفوضى كما حكم بذلك بعض شيوخ الأدب، ولكنه " تقصد " في معنى القصد وتحديّ القيم الثقافية التي تستند إليها النظرية النقدية السائدة في فنّ التوشيح.

فهذا الموشح يحقق رؤية فنيّة تتنزلّ فيها اللغات الثلاث على مراتب مخصوصة من زاوية الإبداع لا من زاوية النقد والتنظير. وهي رؤية تطابق ما بين الناطقين بكلّ منها من صراع ثقافي يستند كل طرف فيه إلى انتماؤه الحضاري العريق. وتفقد فيها الفصحى أفضليتها وتبدو من زاوية قيم النقد في منزلة أقلّ شأنًا من العامية والأعجمية . فبينما خصّها المنظرون بحيز واسع هو كل الموشح ما عدا الخرجة مع إمكانية إمتدادها إليها على شرائط، لم يكن نصيبها من هذا الموشح إلا الأدوار. وربّما تسرّبت إلى الأقفال ولكن في غير المواطن القارة منها. ولا حضور لها في الخرجة. وبينما حدد المنظرون للعامية والأعجمية حيزاً مضبوطاً هو الخرجة فقد حلت من هذا الموشح في كل عناصره القارة.

فتوزع اللغات في هذا الموشح يستخفّ بسنن النقد وما تستند إليه من قيم ثقافية صارمة. لذلك اعتبر مذهب ابن غرلة " استهتاراً " . وهو ما يكشف عن أبعاد إعراض المنظرين عن روايته. أمّا المبدعون فربما جاذبوه ولم يصمد إبداعهم في صراع القيم صمود هذا الموشح.

إنّه " العروس " زينة وبكارة وتوشيحاً. وهو كذلك بتعدّد اللغات فيه وتوزيعها على هذا النحو من النظام وتفاعل أساليبها وأجراس ألفاظها... نغماً يستمد منه هذا الموشح ما به يخرج

(36) انظر الخبر فيما سبق ص 5.

من حدود المحلية والقومية إلى آفاق العالمية والكونية. تلك التي تتجاوز الحدود لغوية كانت أو ثقافية أو غيرها... لذلك اشتهر هذا الموشح وساهم المعرضون عنه في شهرته وساعدونا على التعرف عليه. وقد أطلّ علينا من وراء القرون بعد أن كاد يتلاشى مع " عذّة الجليس" في زوايا الاستشراق.